أهمية تحديد معاني المصطلحات في فهم الخطاب الإسلامي (مصطلح الفكر نموذجاً)

معد أحمد خالد*

المقدمة:

إن التوجه الحديث الذي تعيشه الأمة وتخطو نحوه خطوات مسرعة، هو توجه نحو إصلاح مناهج الفكر، وآليات التفكير، وذلك لسيادة الاعتقاد بأن الأزمة التي تعيشها الأمة هي أزمة فكرية أولاً، نبعت منها أزمات أخرى متعددة[1]. وقد حدد الباحثون في مجال إصلاح الفكر مجموعة من الخطوات التي يتوقع منها أن تؤدى إلى عملية الإصلاح هذه، ومن هذه الخطوات المهمة عملية إصلاح الخطاب الإسلامي، وسبل تطوير أساليبه ليتلاءم مع المرحلة التي نمر بها، وليكون أداة فاعلة في تطوير التفاعل بين النخبة الفكرية والمجتمع. يقول د. طه جابر العلواني: "إن من أهم شروط تحقيق الفاعلية والتأثير في أي نشاط إسلامي؛ فهم المسلم المخاطب لمحتوى وطبيعة الخطاب الموجه إليه فهما دقيقا"[2].

وهذا البحث هو محاولة لتوضيح مدى أهمية فهم الخطاب في التواصل العلمي بين

---

* محاضر بقسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية العالمية ـ ماليزيا.

١ هناك مجموعة كبيرة من الكتب التي تحدثت عن هذه الأزمة منها: أزمة العقل المسلم، عبد الحميد أحمد أبو سليمان، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي فرجينيا، الولايات المتحدة. والأزمة الفكرية المعاصرة، طه جابر العلواني، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ومباحث في منهجية الفكر الإسلامي، عبد المجيد عمر النجار، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت. وتجديد الفكر الإسلامي، محسن عبد الحميد، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي. والفكر الإسلامي، تأليف مجموعة من المفكرين بإعداد الشيخ محمد جواد الفقيه، نشر دار الأضواء، بيروت.

٢ العلواني، طه جابر، **إصلاح الفكر الإسلامي؛ مدخل إلى نظر خطاب الفكر الإسلامي المعاصر** (فرجينيا: الدار العالمية للكتاب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٣، ١٩٩٥) ص١١.

المتخاطبين، وأهمية وضوح المصطلحات والألفاظ في زيادة الفهم والوضوح.

وبما أن الكلام عن الخطاب الإسلامي واسع الآفاق، ممتد الجوانب، فقد اخترت مصطلح "الفكر" الذي يعدُّ سبب الأزمة في العصر الحالي ليكون نموذجاً نوضح المقصود من خلاله.

وقد بدأت بتوضيح معنى الكلمة في كتب اللغة والمعاجم الفلسفية، ثم تتبعت معانيها في القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، واستقرأت بعض التعريفات التي أطلقها قدماء المفكرين المسلمين، وبعض تعريفات المفكرين المعاصرين، ثم طريقة استخدام هؤلاء المفكرين لهذا المصطلح، وبيان النتائج التي أدى إليها هذا الاستخدام.

وقد ختمت البحث بالدعوة إلى أهمية وضع معجم لهذه المصطلحات يكون أداة لتوحيد الفهم بين المتخاطبين.

المبحث الأول: تعريف الفكر في المعاجم اللغوية والفلسفية:

أولاً: المعاجم القديمة:

١ـ يقول الفيروزآبادي في القاموس المحيط، مادة فكر: الفكر، بالكسر ويفتح؛ إعمال النظر في الشيء، كالفكرة. والفكرى بكسرهما ج: أفكار. فكر فيه وأفكر وفكر وتفكر وهو فكير وفيكر كثير الفكر.[٣]

٢ـ وعرّف ابن منظور الفكر في لسان العرب بـ: الفَكْرُ، والفِكْرُ إعمال الخاطر في الشيء، قال سيبويه: ولا يجمع الفكر ولا العلم ولا النظر. قال وقد حكى ابن دريد في جمعه أفكارا.

والتفكّر اسم التفكير، ومنهم من قال فكري، وقال الجوهري: التفكر: التأمل.[٤]

ثانيا: المعاجم الحديثة:

ومن تعريفات القواميس الحديثة ننقل هنا تعريفات لـ:

١ـ المعجم الوسيط: وقد ذكر المعجم تعريف الفكر بـ: فَكَر في الأمر: فكرا:

---

٣ الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط: مادة فكر** (بيروت: تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة ، ط٥، ١٩٩٦م). لكن الفيروزآبادي في كتابه **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، (بيروت: نشر المكتبة العلمية) ص٢١٢، يرى أن "الفكر هوالقوة المطرقة للمعلم إلى المعلوم، والتفكر: جريان تلك القوة بحسب نظر العقل. وهو بهذا يفرق بين الفكر والتفكير، ويتطابق تعريفه الأخير هذا مع تعريف التهانوي الذي سنذكره عند الكلام على تعريف الفكر عند العلماء قديما.

٤ ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب: مادة فكر** (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ودار صادر، ط١، ١٩٩٠م) مجلد(٥).

أعمل العقل فيه ورتب بعض ما يعلم ليصل به إلى مجهول.

فكّر: في الأمر مبالغة في فكر وهو أشيع في الاستعمال من فكر.

افتكر: تذكر وفي الأمر أعمل عقله فيه.

التفكير: إعمال العقل في مشكلة للتوصل إلى حلها.

الفكر: إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة المجهول.

الفكرة: الصورة الذهنية لأمر ما.[٥]

٢ـ المعجم الفلسفي: الفكر إعمال العقل في الأشياء للوصول إلى معرفتها، وهو مرادف للنظر العقلي Reflection، والتأمل Meditation، ومقابل الحدس Intuition.[٦]

ثم ذكر معاني الفكر عند الفلاسفة، ووصل إلى نتيجة قال فيها: "وجملة القول أن الفكر يطلق على الفعل الذي تقوم به النفس عند حركتها في المعقولات أو يطلق على المعقولات نفسها، فإذا أطلق على فعل النفس دلّ على حركتها الذاتية وهي النظر والتأمل، وإذا أطلق على المعقولات دلّ على الموضوع الذي تفكر فيه النفس.[٧]

وعرف الفكرة بأنها التصور الذهني، أو هي حصول صورة الشيء في الذهن.[٨]

٣ـ أما في **موسوعة علم النفس والتحليل النفسي**، فقد ورد التعريف الآتي للدكتور شاكر قنديل:

تفكير: نظام معرفي يقوم على استخدام الرموز التي تعكس العمليات العقلية الداخلية إما بالتعبير المباشر عنها، أو بالتعبير الرمزي، ومادة التفكير الأساسية هي المعاني والمفاهيم والمدركات.[٩]

وقد ذكر مؤلفو الموسوعة تعريفات أخرى للتفكير العياني والمجرد وغيرهما، وهي تعريفات تدور حول أقسام التفكير المذكور في التعريف أعلاه.[١٠]

٤ـ أما **الموسوعة الفلسفية**[١١] فقد ذكرت التعريفات الآتية:

---

٥ إبراهيم أنيس ورفاقه، **المعجم الوسيط** (مصر: مجمع اللغة العربية، ط٢، بدون سنة نشر) ج١.

٦ جميل صليبا، **المعجم الفلسفي** (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢) الجزء الثاني، ص١٥٤.

٧ المصدر السابق، ص١٥٦.

٨ المصدر السابق، ص١٥٧.

٩ د. فرج عبد القادر طه ورفاقه، **موسوعة علم النفس والتحليل النفسي** (الصفاة: دار سعاد الصباح، ١٩٩٣) ص٢٣٣.

١٠ المصدر السابق نفسه، **تعريف التفكير العياني**، للدكتور فرج عبد القادر، ص٢٣٦. **وتعريف التفكير المجرد**، للدكتور فرج أيضا، ص٢٣٦ـ٢٣٧، فضلا عن تعريفات أخرى لأقسام أخرى من التفكير.

أ ـ الفكر: النتاج الأعلى للدماغ كمادة ذات تنظيم عضوي خاص، وهو العملية الإيجابية التي بواسطتها ينعكس العالم الموضوعي في مفاهيم وأحكام ونظريات.

ـ ويظهر الفكر خلال عملية أنشطة الإنسان الاجتماعية والإنتاجية.

ـ ونجد تفسير هذه الحقيقة القائلة بأن الفكر يرتبط ارتباطاً لا ينفصم بأنشطة مثل العمل والكلام.

ـ ويشتمل التفكير على عمليات مثل التجريد والتحليل والتركيب، وصياغة مهام محددة، واكتشاف حلول لها والتقدم بفروض ومفاهيم.. إلخ[١٢]

ب ـ حاولت المثالية جهدها دائماً أن تفصل الفكر عن المادة (الدماغ البشري واللغة ونشاط المجتمع العلمي)[١٣]

جـ ـ في علم النفس: الفكر هو عملية تفاعل الفرد العارف مع موضوع المعرفة أي الحالة التي تسبق مباشرة قدرة الفرد على تحديد مكانه في الواقع.

ـ الفكر هو الشرط الجوهري لأي نشاط آخر، طالما أن هذا النشاط هو نتيجته المجملة والمتمثلة. والكلام هو صورة الفكر.[١٤]

ـ الفكرة: اصطلاح فلسفي يشير إلى المغزى أو المعنى أو الجوهر.

ـ وهذه المسألة لم توضح بطريقة علمية متماسكة إلاّ في الماديّة الجدليّة التي تعتبر الفكرة انعكاساً لواقع موضوعي.

ـ وتفهم الفكرة أيضاً على أنها شكل أو منهج للمعرفة، الغرض منه صياغة المبدأ النظري المعمم الذي يفسر الجوهر.[١٥]

يتضح لنا مما سبق من التعريفات[١٦] أن معنى الفكر في القواميس القديمة والحديثة يدور حول معنيين. الأول منها، وهو الأغلب، يأتي بمعنى إعمال النظر، والتأمل في

---

١١ ألفت هذه الموسوعة من قبل بعض العلماء السوفيات، وقد أوردنا منها هذه التعريفات، على الرغم من أنها تمثل اتجاها بني على الفكر الماركسي الإلحادي، لأنها تمثل رأيا لكثير من المفكرين والكتاب المعاصرين.

١٢ نخبة من العلماء السوفيات، ترجمة سمير كرم، **الموسوعة الفلسفية** (بيروت: دار الطليعة، ط٦، ١٩٨٧) ص٣٣٢.

١٣ المصدر السابق نفسه، ص٣٣٣.

١٤ المصدر السابق نفسه.

١٥ المصدر السابق نفسه، ص٣٣٦.

١٦ تم الاكتفاء بهذه التعريفات التي أخذت من القواميس، وذلك لتشابه تعريف الفكر في كل القواميس تقريبا، ولذلك فلا جدوى من ذكر مجموعة أكبر من التعريفات إلا التكرار.

مجموعة من المعارف بغرض الوصول إلى معرفة جديدة، وهو بهذا عملية يقوم بها العقل أو الذهن بوساطة الربط بين المدركات أو المحسوسات واستخراج معانٍ غائبة عن النظر المباشر.[١٧]

أما المعنى الثاني فيأتي بمعنى الثمرة التي تنتج عن عملية التفكير، فالفكر هو الناتج لعملية التفكير، وهو المعقولات نفسها.

ويمكن أن نسجل بعض الملاحظات على هذه التعريفات، لأنها ستفيدنا في توضيح إشكالية البحث في المستقبل:

١ـ عدم اتفاق واضعي هذه التعاريف على الأداة أو الجهة المسئولة عن عملية التفكير، فماذا يقصد بإعمال النظر؟ هل يقصد العقل الذي قد يختلف الناس على تعريفه أو تحديد ماهيته؟ أو الدماغ لكونه عضواً في رأس الإنسان ووسيلة لتحليل المعلومات؟ أم أن المسئول عن عملية التفكير هو جهاز آخر أو جهة أخرى؟ أو أن هناك مجموعة من الآلات التي تقوم مجتمعة بهذه العملية.

٢ـ إن القول بأن الفكر هو ثمرة عملية التفكير والناتج الذي يصدر عنها، أمر فيه من الخلط ما لا يخفى على متدبر، لأن هذا المفهوم يعني شموله لكل ما أنتجته البشرية، فالكلام هو نتاج لعملية تفكير، والعلوم كلها كذلك، والصناعات والتجارة والتعامل الاجتماعي والاقتصادي كله يصبح بهذا المفهوم فكراً، ولو رجعنا إلى تعريفات الذين قالوا بأن الفكر هو ثمرة لوجدنا أنهم يفصلون بين هذه الأشياء وبين الفكر، وخير مثال على ذلك الادعاء بأن الكلام يتصل بالفكر اتصالاً وثيقاً، فهو بهذا المعنى ليس بفكر، وسنفصِّل القول في هذه المسألة عند التطرق إلى أقوال المحدثين عن معنى الفكر.

٣ـ هناك من جعل الفكر مرادفا لعمليات أخرى مثل التأمل والنظر، فهل يأخذ الفكر كل معاني تلك المرادفات أو يشترك معها في بعض خصائصها؟ لأننا في هذه الحالة يجب أن نبحث عن معاني تلك المرادفات حتى نحصل على معنى واضح للفكر.

٤ـ القول بأن الفكر هو العملية الذهنية، أو هو الثمرة لتلك العملية يتطلب وجود

---

١٧ أكد الدكتور طه جابر العلواني هذه الخلاصة، فقال: "ولكني أستطيع أن أقول: إنني خرجت من خلال دراستي لما ورد في هذه المصادر بأن الفكر اسم لعملية تردد القوى العاقلة المفكرة في الإنسان، سواء أكان قلبا أم روحا أم ذهنا بالنظر والتدبر، لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومة، أو الوصول إلى الأحكام أو النسب بين الأشياء". انظر: **الأزمة الفكرية المعاصرة**، ص٢٧.

آلات ووجود معارف ووجود غاية أو هدف، كما يتطلب "التفكير السليم" وجود ضوابط وأسس توجه عملية التفكير توجيهاً صحيحاً، وهذه الملاحظة ستفيدنا في المستقبل عند الكلام عن الفرق بين الفكر وبعض المعاني الأخرى مثل العقيدة والمعرفة والمبادئ والقيم.

المبحث الثاني: الفكر في القرآن والسنة

أولا: في القرآن الكريم

وردت مشتقات الفكر في القرآن الكريم في (١٨) ثمانية عشر موضعا[١٨]، و لم ترد الكلمة بصيغة الجذر (فكر) وإنما وردت بصيغة الفعل فقط، وفيما يلي الصيغ التي وردت بها الكلمة.

١ـ سورة البقرة: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الأَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١٩).

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الأَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٦٦).

٢ـ سورة آل عمران: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٩١).

٣ـ سورة الأنعام: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥٠).

٤ـ سورة الأعراف: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ

---

١٨ ورد في كتاب **الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات علاج**، للدكتور طه العلواني، أن الكلمة وردت في القرآن في عشرين موضعاً. ولكني وجدت أن الكلمة وردت في ثمانية عشر موضعاً بعد أن نظرت في **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، لمحمد فؤاد عبد الباقي، (القاهرة: نشر دار الحديث، ط٢، ١٩٩١م)، ص٦٦٧. وكذلك برنامج القرآن الكريم Al-Quran CD-ROM Ver 6، إصدار شركة صخر لبرامج الحاسب، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٤. ولذلك فإن الرقم المذكور في كتاب الأزمة الفكرية ربما يكون بسبب خطأ مطبعي.

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِأَيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧٦).

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٨٤).

٥ـ سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٤).

٦ـ سورة الرعد: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣).

٧ـ سورة النحل: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١١).

﴿.....وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٤).

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٦٩).

٨ـ سورة الروم: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٨).

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (٢١).

٩ـ سورة سبأ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٤٦).

١٠ـ سورة الزمر: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٢).

١١ـ سورة الجاثية: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٣).

١٢- سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١).

١٣- سورة المدثر: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ (١٨).

يتضح لنا من النصوص القرآنية التي ذكرناها أن اللفظ جاء بصيغة الفعل فقط، ويبين لنا الجدول الآتي تفصيلا لهذه الصيغ وتكرارها:

صيغة الفعل	نوع الفعل	عدد مرات التكرار
فَكَّرَ	الماضي	مرة واحدة
تَتَفَكَّرُوا	المضارع	مرة واحدة
تَتَفَكَّرُون	المضارع	ثلاث مرات
يَتَفَكَّرُوا	المضارع	مرتان
يَتَفَكَّرُون	المضارع	أحد عشر مرة

ومن خلال هذا الجدول نرى أن الفعل جاء بصيغة المضارع في سبع عشرة مرة، وجاء بصيغة الماضي مرة واحدة فقط، والفعل المضارع كما هو معلوم يدل على الحال والاستمرار، كما أن الفعل جاء مقروناً بواو الجماعة في صيغ المضارع.

إن مجيء لفظ الفكر في القرآن بصيغة الفعل يدل دلالة صريحة على إعمال العقل[١٩] والنظر، أي أن التفكر في القرآن يعني إعمال العقل والنظر في آيات الله، وفي الدنيا وحالها...إلخ. ولم يرد التفكر بمعنى آخر من المعاني التي ذكرناها في التعريفات السابقة للفكر، أي بمعنى الناتج عن إعمال العقل والنظر. كما أن طلب الفعل هذا جاء من الله للجماعة، ولذلك يمكن القول بأن التفكير الجماعي يطلب من الأمة أكثر من التفكير الفردي، وأن التفكير الفردي يكون في شئون الفرد، ويمكن إدخال مفهوم التفكير الشوري تحت مفهوم التفكير الجماعي، وقد رأينا أن الفعل لم يأت بصيغة المفرد إلاّ مرة للذم. والنتيجة هذه لا تعني أن القرآن لم يهتم بالثمرة التي تأتي بعد عملية التفكير، بل على العكس تماماً، فالقرآن إنما دعانا للتفكر من أجل الثمرة نفسها،

---

١٩ وردت صيغة يعقلون في القرآن بمعنى التفكر والنظر، قال تعالى في سورة النحل: ﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾، ومثل هذا كثير، وتكاد تتطابق آيات التعقل مع آيات التفكر من حيث أنها ترد في سرد عظمة خلق الله، ثم جعل ذلك آية للمتفكرين العاقلين.

لمعرفتها والعمل من أجل قطف الطيب من ثمارها وتجنب السوء الذي يأتي بسبب تجاهلها، وإنما الذي نعنيه أن القرآن أعطى لكل معنى من هذه المعاني مصطلحاً خاصاً به، فهناك فرق مثلاً بين العلم والفكر، ويمكن أن يكون الأول نتيجة وثمرة للثاني ولكنه ليس نفسه بل يختلف عنه.

ولقد تتبعت كثيراً من كتب التفسير حتى تبين لي بأن المفسرين في تفاسيرهم قد أجمعوا على معنى التفكير، فكل الذين قرأت لهم، والذين سأورد لهم نصوصا بعد ذلك، قد فسروا التفكر بمعنى النظر والتأمل، وفي بعض الأحيان كانوا لا يتطرقون إلى معنى هذه الكلمة، وكأن القارئ عندهم يفهم معناها بداهة، فلا حاجة لذكر ذلك المعنى. وفيما يلي بعض النصوص التي تؤيد هذا الكلام:

قال الزمخشري في تفسير الآية ٢١٩ من سورة البقرة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾: "إما أن يتعلق بتتفكرون فيكون المعنى: لعلكم تتفكرون فيما يتعلق بالدارين فتأخذون بما هو أصلح لكم كما بين لكم أن العفو أصلح من الجهد في النفقة، أو تتفكرون في الدارين فتؤثرون أبقاهما وأكثرهما منافع"[٢٠]

ولم يتطرق الزمخشري في تفسيره للآية رقم ٢٦٦ من السورة نفسها إلى معنى التفكر، بل تجاوزه وقال كلاماً يدل على أن الآية فيها مثل ضُرِبَ للناس ليعقلوه.[٢١] كما أورد في تفسير الآية رقم ١٩١ من سورة آل عمران كلاماً يدل على أن التفكر هو التأمل والنظر في خلق الله، وأورد حديث "لا عبادة كالتفكر".[٢٢]

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾: "ومعناه فكر ماذا يقول في القرآن"[٢٣]

وذكر القرطبي تفسيراً قريباً من تفسير الزمخشري للآية رقم ٢١٩ من سورة البقرة، فقال: "أي كذلك يبين الله لكم الآيات في أمر الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون في الدنيا وزوالها وفنائها فتزهدون فيها وفي إقبال الآخرة وفنائها فترغبون فيها"[٢٤]. وأورد

---

٢٠ الزمخشري، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل في وجوه التأويل** (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، بدون سنة نشر) المجلد الأول، ص٣٦٠.

٢١ المصدر السابق نفسه، ص٣٩٥.

٢٢ المصدر السابق نفسه، ص٤٨٨.

٢٣ المصدر السابق، المجلد الرابع، ص١٨٢.

٢٤ القرطبي، أبي عبد الله محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن** (بيروت: مؤسسة مناهل العرفان، بدون سنة نشر) المجلد الثاني، الجزء الثالث، ص٦٢.

التفسير نفسه للآية ٢٦٦ من سورة البقرة، فقال: "وقال ابن عباس أيضاً: تتفكرون في زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقائها"[٢٥]

أما ابن كثير فلم يعط معنى للتفكر يختلف عن بقية التفاسير، بل أورد تفسيرات لهذه الكلمة تدور في معاني بقية المفسرين، فعند تفسيره للآية رقم ٨ من سورة الروم يقول: "يقول الله تعالى منبّهاً على التفكر في مخلوقاته الدالة على وجوده..... ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ يعني به النظر والتدبر والتأمل"[٢٦] وعند تفسيره للآية رقم ٣ من سورة الرعد: "﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي ينظرون في آلاء الله ويتعظون"[٢٧]

وقال الطبرسي في تفسيره للآية رقم ٢١٩ من سورة البقرة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي لكي تتفكروا (في الدنيا والآخرة) أي في أمر الدنيا وأمر الآخرة"[٢٨].

نستخلص من تتبع تفسير آيات التفكر عند المفسرين، أن التفكر يعني النظر والتأمل، وهو بمفهوم أهل اللغة إعمال العقل والنظر للوصول إلى المجهول، وهو العملية العقلية التي يقوم بها الإنسان من أجل الوصول إلى حقائق معينة. فالمعنى القرآني يدور حول الفعل (عملية التفكير)، ولا يعطي معنى الثمرة أي ما يلي عملية التفكير من ناتج.

ثانياً في الحديث النبوي الشريف:

أما في الحديث الشريف فقد وردت الكلمة في مواضع عديدة وفي أحاديث كثيرة، ولم يسعفني الوقت لتتبع كل الأسانيد لمعرفة صحتها ونسبتها إلى رسول الله ﷺ،

---

٢٥ المصدر السابق نفسه، ص٣٢٠.

٢٦ ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل، **تفسير القرآن العظيم** (الرياض: مكتبة دار السلام، ١٩٩٢) ج٣، ص٤٧٠.

٢٧ المصدر السابق، الجزء الثاني، ص٥٤٨.

٢٨ الطبرسي، أبي علي الفضل بن حسن، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، (بيروت: دار المعرفة، ط١، ١٩٨٦) الجزء الأول، ص٥٥٤. ويمكن الرجوع إلى التفاسير الآتية، التي ذكرت المعاني نفسها في تعريف التفكر:

أ ـ الآلوسي، أبي الفضل شهاب الدين، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨) المجلد الأول، الجزء الثاني، ص١١٦.

ب ـ الشيخ هود بن محكم الهوري، **تفسير كتاب الله العزيز**، حققه بالحاج بن سعيد شريفي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٠) الجزء الأول، ص٢٠٨.

جـ ـ **تفسير الحسن البصري**، جمع وتوثيق د. محمد عبد الرحيم (القاهرة: دار الحديث) الجزء الأول، ص١٥١.

د ـ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير** (تونس: الدار التونسية للنشر) الجزء الثاني، ص٣٥٢ـ٣٥٤، وقد ربط الطاهر بن عاشور بين التفكر في الدنيا والآخرة بدلالة الآية ربطا جميلا بديعا.

هـ ـ نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، تحقيق إبراهيم عطوة عوض (القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط٣، ١٩٦٢) الجزء الثاني، ص٢٣٧.

ولذلك استعنت ببرنامج الحديث الشريف المسجل على إسطوانة حاسوب (CD) وهو من إصدار شركة صخر لبرامج الحاسب، ويشتمل هذا البرنامج على تسعة من كتب الحديث، وقد وصلت إلى المعلومات الآتية:

١ـ صحيح البخاري: وردت الكلمة في أربعة مواضع، واحدة منها بلفظ البخاري، والبقية بلفظ القرآن الكريم. وهذا يعني أن الكلمة لم ترد على لسان رسول الله ﷺ عند البخاري، وقد أفرد البخاري لها باباً تحت كتاب الصلاة، فقال: "باب يفكر الرجل الشيء في الصلاة"[٢٩].

٢ـ صحيح مسلم: وردت الكلمة في موضعين، الأول منها بلفظ مسلم في باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة، واللفظ هنا بصيغة الاسم، ويدل على إعمال العقل في أمور الآخرة ومراقبة النفس. والموضع الثاني في كتاب الزهد والرقائق في الحديث:

٥٢٧٠ عن أبي هريرة قال قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة قالوا لا، قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة قالوا لا، قال فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما..... ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يا ربّ آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع فيقول ها هنا إذا قال ثم يقال له الآن نبعث شاهدنا عليك **ويتفكر** في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه"[٣٠]. واللفظ هنا بصيغة الفعل، ويدل على أن الإنسان يملك تفكيرا يوم القيامة، يفكر فيه وهو يدلي بحجته أمام الله سبحانه وتعالى عند المساءلة.

٣ـ سنن أبي داود: ورد الحديث عند أبي داود في موضع واحد، وهو بصيغة الفعل، واللفظ لأحد التابعين، وليس لرسول الله ﷺ، وذلك في كتاب الصلاة:

٥٩١ عن أبي هريرة عن أبي القاسم ﷺ قال فذكر حديث الخط قال سفيان لم

---

٢٩ **برنامج الحديث الشريف**، إصدار شركة صخر، من شركات مجموعة العالمية، (CD Ver 1.1)، القاهرة، ١٩٩٦.

٣٠ المصدر السابق نفسه.

نجد شيئا نشد به هذا الحديث و لم يجئ إلا من هذا الوجه قال قلت لسفيان إنهم يختلفون فيه **فتفكر** ساعة ثم قال ما أحفظ إلا أبا محمد بن عمرو..."[٣١].

٤ـ مسند الإمام أحمد: وردت كلمة الفكر عند الإمام أحمد في مواضع عدة، وكلها بصيغة الفعل الدال على إعمال العقل في أمور الدنيا، كما في الأحاديث الآتية:

٤٠٨٥ عن ابن مسعود قال بينما رجل فيمن كان قبلكم كان في مملكته **فتفكر** فعلم أن ذلك منقطع عنه وأن ما هو فيه قد شغله عن عبادة ربه فتسرب فانساب ذات ليلة من قصره فأصبح في مملكة غيره وأتى ساحل البحر وكان به يضرب اللبن بالآجر فيأكل ويتصدق بالفضل فلم يزل كذلك حتى رقى أمره إلى ملكهم وعبادته وفضله فأرسل ملكهم إليه أن يأتيه فأبى أن يأتيه فأعاد ثم أعاد إليه فأبى أن يأتيه وقال ما له وما لي قال فركب الملك فلما رآه الرجل ولى هاربا فلما رأى ذلك الملك ركض في أثره فلم يدركه قال فناداه يا عبد الله إنه ليس عليكم مني بأس فأقام حتى أدركه فقال له من أنت رحمك الله قال أنا فلان بن فلان صاحب ملك كذا وكذا **تفكرت** في أمري فعلمت أن ما أنا فيه منقطع فإنه قد شغلني عن عبادة ربي فتركته وجئت ها هنا أعبد ربي عز وجل فقال ما أنت بأحوج إلى ما صنعت مني قال ثم نزل عن دابته فسيبها ثم تبعه فكانا جميعا يعبدان الله عز وجل فدعوا الله أن يميتهما جميعا قال فماتا قال لو كنت برميلة مصر لأريتكم قبورهما بالنعت الذي نعت لنا رسول الله ﷺ.

٨٢٨٦ عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ رأيت ليلة أسري بي لما انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فوق قال عفان فوقي فإذا أنا برعد وبرق وصواعق قال فأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيّات ترى من خارج بطونهم قلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء أكلة الربا فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل مني فإذا أنا برهج ودخان وأصوات فقلت ما هذا يا جبريل قال هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم أن لا **يتفكروا** في ملكوت السموات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب.

٨٤٠٢ عن أبي هريرة... الحديث السابق نفسه بسند مختلف عن أبي هريرة.

١٥٩٨٤ عن ربيعة بن كعب قال كنت أخدم رسول الله ﷺ وأقوم له في حوائجه نهاري أجمع حتى يصلي رسول ﷺ العشاء الآخرة فأجلس ببابه إذا دخل بيته أقول

---

٣١ المصدر السابق نفسه.

لعلها أن تحدث لرسول الله ﷺ حاجة فما أزال أسمعه يقول رسول الله ﷺ سبحان الله سبحان الله سبحان الله وبحمده حتى أملّ فأرجع أو تغلبني عيني فأرقد قال فقال لي يوما لما يرى من خفتي له وخدمتي إياه سلني يا ربيعة أعطك قال فقلت انظر في أمري يا رسول الله ثم أعلمك ذلك قال **ففكرت** في نفسي فعرفت أن الدنيا منقطعة زائلة وأن لي فيها رزقا سيكفيني ويأتيني قال فقلت أسأل رسول الله ﷺ لآخرتي فإنه من الله عز وجل بالمنزل الذي هو به... الحديث.

أو التفكر في النفس، لإدلاء الحجة، وإيجاد مخرج، كما في الأحاديث الآتية:

١٥٢٢٩ سمعت كعب بن مالك يحدّث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقال كعب بن مالك.... فقال كعب بن مالك فلما بلغني أن رسول الله ﷺ توجه قافلا من تبوك حضرني بثي فطفقت **أتفكر** الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا أستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل وعرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً فأجمعت صدقه... الحديث.

١٦٢١٧ عن خالد بن الوليد قال كتب إليّ أمير المؤمنين حين ألقى الشام بوانية بثنية وعسلا وشكّ عفّان مرة قال حين ألقى الشام كذا وكذا فأمرني أن أسير إلى الهند والهند في أنفسنا يومئذ البصرة قال وأنا لذلك كاره قال فقام رجل فقال لي يا أبا سفيان اتق الله فإن الفتن قد ظهرت قال فقال وابن الخطاب حي إنما تكون بعده والناس بذي بليان وذي بليان بمكان كذا وكذا فينظر الرجل **فيتفكر** هل يجد مكانا لم ينزل به مثل ما نزل بمكانه الذي هو فيه من الفتنة والشر فلا يجده قال وتلك الأيام التي ذكر رسول الله ﷺ بين يدي الساعة أيام الهرج فنعوذ بالله أن تدركنا وإياكم تلك الأيام.

أو التفكر في فهم الكلام، وإيجاد تفسير له، كما في الحديث الآتي:

٢٢٠٨٨ حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال قال رجل يا رسول الله أوصني قال لا تغضب قال قال الرجل **ففكرت** حين قال النبي ﷺ ما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله.

هذه هي المواضع التي ورد فيها لفظ الفكر بأحد مشتقاته في ثمانية من كتب الحديث وهي:

صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن ابن ماجه، وسنن

الترمذي، ومسند الإمام أحمد، وموطأ الإمام مالك، وسنن الدارمي.

ويتبين لنا من خلال وُرُودِ الكلمة أن الرسول ﷺ جاء بها بصيغة الفعل، و لم ينطقها بصيغة الاسم، كما أن دلالاتها عند الرسول ﷺ تدل على إعمال العقل والنظر في حال الدنيا وحال الآخرة. وجاءت بمعنى تفكر الإنسان في نفسه لإيجاد حجة له يدافع بها عن نفسه.

و لم تأت اللفظة بصيغة الاسم إلا عند الإمام مسلم، وبلفظه هو للدلالة على إعمال العقل في أمور الدنيا والآخرة.

وبهذا يتضح لنا من خلال استقراء الكلمة في القرآن الكريم وكتب التفسير، وكتب الحديث الشريف التي اطلعنا عليها، أن التفكر يكون بإعمال العقل في أمور الدنيا والآخرة، لمعرفة أن الدنيا دار زوال، وأن الآخرة دار بقاء، وبهذا يعتبر الإنسان، فيعمل لآخرته، والتفكر في حال الإنسان وعمله، والتفكر في ملكوت السماوات والأرض، وعظمة خلق الله..... إلخ، والتفكر كله يكون بعملية عقلية يستخدم فيها الإنسان ما تيسر له من أدوات مساعدة كالحواس، وسيرة الأمم السابقة، وسنن الكون، وغيرها من الأمور التي تساعده على الوصول إلى حقيقة الدنيا، وحقيقة الآخرة، ووجود الله، وعظمته...إلخ.

وكذلك يتبين لنا أن اللفظ لم يأت للدلالة على ثمرة النظر والتأمل، و لم يأت اللفظ بتصريف يدل على الناتج عن عملية التفكير، حتى في صيغة الإمام مسلم في دوام الذكر والفكر، فإنها تدل على إعمال العقل والنظر، والله تعالى أعلم.

المبحث الثالث: الفكر عند العلماء قديما:

تطرق العلماء قديما إلى كلمة الفكر كثيرا في مؤلفاتهم، وعرفوها بتعريفات عدة، وذلك لأن الجدل في زمانهم كان يدور حول العقل، والمعرفة، وطريقة استنباط العلوم، وغير ذلك من القضايا الفلسفية التي دخلت إلى العلوم الإسلامية نتيجة الاحتكاك والتأثر بالثقافات الأخرى: الفارسية، واليونانية، والهندية، وغيرها من الثقافات. والملاحظ على هذه التعريفات أنها متقاربة المعنى، فهي تأتي دائما بمعنى النظر والتأمل، وإعمال العقل في المعلوم للوصول إلى المجهول. وفيما يلي بعض هذه التعريفات:

أولا: يعرف الغزالي الفكر بقوله: "اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة"[٣٢]. وقد ضرب الغزالي المثال الآتي للفكر: "الأبقى أولى بالإيثار، والآخرة أبقى، فالآخرة أولى بالإيثار"[٣٣]. ويرى الغزالي أن الفكر والتأمل والتدبر بمعنى واحد فيقول: "أما التدبر والتأمل والتفكر فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة"[٣٤].

ثانيا: ويعرف الرازي الفكر بتعريف مقارب لتعريف الغزالي فيقول: "النظر هو ترتيب تصديقات يتوصل بها إلى تصديقات أخرى، فإن من صدّق بأن العالم متغير، وكل متغير ممكن، حتى لزمه التصديق بأن العالم ممكن فلا معنى لفكره إلا ما حضر في ذهنه من التصديقين المستلزمين للتصديق الثالث"[٣٥]. ومما يؤكد أن الرازي يقصد بالنظر في تعريفه "الفكر" ما قاله في المسألة العاشرة: "قد عرفت أن الفكر: ترتيب تصديقات يتوصل بها إلى تصديقات أخرى، ثم التصديقات المستلزمة إن كانت مطابقة لمتعلقاتها فهو الفكر الصحيح، وإلا فهو الفكر الفاسد"[٣٦]. إذاً فالفكر عند الرازي هو النظر، ويعني به إعمال العقل في علوم متيسرة للإنسان ليتوصل بذلك إلى علوم أخرى غير متيسرة، فهو حركة العقل التي يقوم بها من أجل التوصل إلى أمر ما، ويوضح هذا المعنى قول الرازي: "ومنهم من جعل الفكر أمرا وراء هذه التصديقات المرتبة ـ إما عدميا وهو الذي يقال ـ: الفكر تجريد العقل عن الغفلات، أو وجوديا، وهو الذي يقال: الفكر هو تحديق العقل نحو المعقول"[٣٧]. وهكذا نرى من خلال كلام الرازي أنه لا يختلف كثيرا في فهمه للفكر عن الغزالي، حتى أنه أعطى مثالا يكاد يكون متطابقا للتعريف الذي أعطاه الغزالي.

ثالثا: ويعرف الجويني الفكر بالنظر، ويقسمه إلى صحيح وفاسد، فيقول: "والنظر

---

٣٢ الغزالي، أبي حامد محمد، **إحياء علوم الدين** (بيروت: دار الندوة الجديدة، بدون سنة نشر) ج٤، ص٤٢٥.

٣٣ المصدر السابق نفسه. وهذه المقدمة يستعملها أهل المنطق، وأهل الكلام كثيراً، وقد دخلت طريقة الاستدلال هذه في العلوم الإسلامية نتيجة للتأثر بالفلسفة اليونانية كما ذكرنا.

٣٤ المصدر السابق، ص٤٢٦.

٣٥ الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسن فخر الدين، **كتاب المحصل** (القاهرة: مكتبة دار التراث، ط١، ١٩٩١) ص١٢١.

٣٦ المصدر السابق، ص١٣٨.

٣٧ المصدر السابق، ص١٢٢.

في اصطلاح الموحدين هو الفكر الذي يطلب به من قام به علما أو غلبة ظن. ثم ينقسم النظر إلى قسمين: إلى الصحيح، وإلى الفاسد"[٣٨].

رابعا: ويرى الباقلاني أيضا أن الفكر هو النظر، ويتضح لنا هذا من خلال كلامه عن العلوم النظرية، فيقول: "فإن قيل: فما معنى تسميتكم للضرب الآخر منها علم نظر واستدلال؟ قيل له: مرادنا بذلك أنه علم يقع بعقب استدلال وتفكر في حال المنظور فيه أو تذكر نظر فيه فكل ما احتاج من العلوم إلى تقدم الفكر والروية وتأمل حال المعلوم فهو الموصوف بقولنا علم نظري"[٣٩]، ويورد في مواقع أخرى كلاما يدل على أن الفكر أو النظر هو عملية يقوم بها القلب بصفته وسيلة الإدراك للوصول إلى مراده"[٤٠].

خامسا: أما أبو منصور البغدادي فلا يختلف في تعريفه للفكر عن بقية العلماء الذين ذكرنا، فهو يرى بأن الفكر هو النظر، وأن النظر هو العملية التي يقوم بها العقل من أجل الوصول إلى المعارف والتي سماها المعارف العقلية النظرية"[٤١].

سادسا: أما التهانوي فيعرف الفكر بثلاثة تعريفات رجوعا إلى أقوال المتقدمين من المنطقيين فيقول: "الأول حركة النفس في المعقولات بواسطة القوة المتصرفة، أي حركة كانت، أي سواء كانت بطلب أو بغيره، وسواء كانت من المطالب أو إليها"[٤٢]. و"الثاني حركة النفس في المعقولات مبتدئة من المطلوب المشعور بوجه ما مستغرقة فيها طالبة لمباديه المؤدية إليه إلى أن تجدها وترتبها فترجع منها إلى المطلوب أعني مجموع الحركتين"[٤٣]. و"الثالث هو الحركة الأولى من هاتين الحركتين أي الحركة من المطلوب إلى المبادي وحدها من غير أن توجد الحركة الثانية معها وإن كانت هي المقصودة

---

٣٨ إمام الحرمين الجويني، أبي المعالي عبد الملك، **كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد**، تحقيق أسعد تميم (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٩٨٥) ص٢٥. ويبدو أن الرازي قد نظر إلى تعريف الجويني وتقسيمه للفكر ـ أو النظر فلا فرق ـ وهو يتكلم عن أحكام النظر، حتى أن عنوانه هذا "أحكام النظر" هو العنوان نفسه الذي ذكر فيه الجويني تعريف الفكر.

٣٩ الباقلاني، القاضي أبي بكر محمد بن الطيب، **تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل**، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ط٣، ١٩٩٣) ص٤٣.

٤٠ المصدر السابق، ص٣٤.

٤١ البغدادي، أبي منصور عبد القاهر بن طاهر، **كتاب أصول الدين**، المسألة التاسعة من الأصل الأول (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٠) ص١٤.

٤٢ التهانوي، محمد أعلى بن علي، **كشاف اصطلاحات الفنون** (بيروت: دار صادر، بدون سنة نشر أو طبعة) ج٣، ص١١٢٠.

٤٣ المصدر السابق، ص١١٢١.

منها"[٤٤]. والتهانوي يرى أن هناك قوة متصرفة هي التي تقوم بعملية التفكير، وتسمى على حسب الحركة التي تقوم بها، فهي "تسمى باعتبار الأول متفكرة، وباعتبار الثاني أي باعتبار حركة النفس بواسطتها في المحسوسات تسمى متخلية هذا هو المشهور"[٤٥]. كما يرى التهانوي أن الفكر والنظر بمعنى واحد، أو أن النظر يدخل بمعنى أخص تحت الفكر فيقول: "ولا شك أن النفس تلاحظ المعقولات في ضمن تلك الحركة فقيل الفكر هو تلك الحركة والنظر هو الملاحظة التي في ضمنها وقيل لتلازمهما أن الفكر والنظر مترادفان"[٤٦].

سابعا: أما ابن القيم فقد قسم العمليات التي يمر بها الإنسان وهو يفكر إلى مراحل، الأولى وهي: "اليقظة وهي انزعاج القلب، لروعة الانتباه من رقدة الغافلين"[٤٧]، والثانية وهي المرحلة التي تهمنا وهي مرحلة "الفكر وهي تحديق القلب نحو المطلوب الذي قد استعد له مجملا، ولما يهتد إلى تفصيله وطريق الوصول إليه"[٤٨]. والمرحلة الثالثة هي مرحلة التذكر التي قال إن ثمرة الفكرة تجنى فيها"[٤٩].

يتضح لنا مما سبق أن أهل العلم سابقا كانوا يرون أن الفكر والنظر بمعنى واحد، وهذا المعنى هو إعمال العقل في أمور محسوسة أو غير محسوسة للوصول إلى أمر آخر. كما ذكر ابن القيم أن ثمرة التفكير في مرحلة أخرى لاحقة للتفكير هي مرحلة التذكر.

المبحث الرابع: الفكر عند أهل العلم حديثا

تطرق الباحثون في عصرنا هذا إلى كلمة الفكر كثيرا، ووردت في كل الكتب التي تتحدث عن الإسلام تقريبا، سواء أكانت هذه الكتب تتكلم عن جوانب فلسفية، أم أمور تعبدية، أم أي فرع آخر من فروع العلوم الإسلامية، ولا يكاد كتاب يخلو من ورود هذه الكلمة فيه، وقد أضاف الباحثون كلمة الفكر إلى كلمات أخرى ليشكلوا

---

٤٤ المصدر السابق نفسه.

٤٥ المصدر السابق نفسه.

٤٦ المصدر السابق نفسه. وقد قال التهانوي بأن ترادف معنى النظر والفكر هو القول المشهور عند أهل العلم.

٤٧ الجوزية، ابن القيم أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تحقيق أحمد فخري وعصام الحرستاني (بيروت: دار الجيل، ط١، ١٩٩١) ج١، ص١٥١.

٤٨ المصدر السابق نفسه. وقد أفرد ابن القيم فصلا لمنزلة الفكرة، وقام بتقسيم الفكرة إلى نوعين، ويترتب على هذين النوعين أمران، فصار المجموع ستة. انظر ص ١٧٦.

٤٩ المصدر السابق نفسه.

بها مصطلحات، وقد حاولت تتبع هذه المصطلحات وحصرها، ولكني اكتشفت أن ذلك أمرٌ لا يتيسر في بحث مثل هذا، ويحتاج الأمر لجهود كثيرة وشاقة لحصر المصطلحات التي وردت بها كلمة الفكر.

إن شيوع استخدام كلمة "الفكر" في الأوساط العلمية شيوعا واسعا أعطى قيمة غير طبيعية للكلمة، مما أدى إلى استخدامها في مواضع عديدة يعجز الإنسان عن فهم معناها في كثير من الأحيانِ، ومثل ذلك عندما نقول: (الموائد الفكرية، الخلطات الفكرية، والمداعبات الفكرية، والدعارة الفكرية) وغير ذلك من المصطلحات التي تنسب إلى الفكر. وبما أن الفكر كلمة عربية فصيحة، فهذا يعني أن لها معنى عند العرب مسجلا في المعاجم وكتب اللغة، وإذا حدث أي تغير في معنى الكلمة وهو ما يسمى "بالتطور الدلالي" فيجب أن يسجل هذا المعنى في المعاجم التي جاءت بعد زمن التطور، أو يتطرق إليه الباحثون في اللغويات في كتبهم، أو أهل الفلسفة والعلوم الإنسانية ـ التي قد تسمى بالنظرية أو العقلية ـ في كتاباتهم حول هذه المصطلحات. وقد حاولت الرجوع إلى المعاجم الحديثة والكتب التي تحدثت عن الفكر والتفكير لأصل إلى المعاني الجديدة التي تناولتها الكلمة، وفيما يلي بيان لما توصلت إليه:

أولا: يدور المعنى في المعاجم الحديثة كما ذكرنا سابقاً حول معنيين، الأول وهو النظر والتأمل وإعمال العقل، والثاني هو الثمرة التي تأتي بعد عملية التفكير. وقد ذكرنا المصادر في المبحث الأول من هذا البحث.

ثانيا: وردت تعريفات عدة للمصطلح الذي يسمى (الفكر) وكذلك (العقل) في الكتب الفلسفية. ووردت الكلمة في كل الكتب التي تحدثت عن المعارف الإنسانية عموما. وسنتطرق إلى تعريف الفكر في هذه الكتب، ثم نتحدث عن طريقة استخدام الكتاب لهذا المصطلح، والمعاني التي استخدموه فيها، ومدى مطابقة التعريفات الموجودة في الكتب للمعاني المستخدمة.

١ـ قال الدكتور عبد الرحمن الزنيدي في تعريف الفكر، بعد أن أورد تعريفات القدماء للفكر والتي تدل على معنى النظر وإعمال العقل: "والفكر في المصطلح الفكري ــ والفلسفي خاصة ــ هو الفعل الذي تقوم به النفس عند حركتها في المعقولات، أي النظر والتأمل والتدبر والاستنباط والحكم، ونحو ذلك. وهو كذلك

المعقولات نفسها، أي: الموضوعات التي أنتجها العقل البشري"[٥٠]، ثم يقول إذا قلنا المنهاج الذي سار عليه الفكر فنقصد التفكير، وإذا قلنا الفكر اليوناني فنقصد نتاج العقل في حركته[٥١]. ثم يعرف الفكر الإسلامي بأنه "الصنعة العقلية وفق منهج الإسلام"[٥٢]، ويقصد بالصنعة العقلية اجتهادات العلماء والنتائج الموضوعية التي توصلوا إليها. ثم يبدأ الزنيدي بشرح مجالات الفكر، ومصادره، ويقول إن مصدري الفكر هما القرآن والسنة، و"أن مجال الفكر هو القضايا العامة سواء كانت نظرية بحتة كنظرية المعرفة من حيث طبيعتها ومصادرها ومناهجها وفلسفة العلوم، أو كانت اجتماعية أو خلقية"[٥٣]. ثم يذكر الزنيدي أن هناك مجالات لا يدخل فيها الاجتهاد أو الفكر، مثل القطعيات في مسائل العبادات كعدد ركعات الصلاة، ومصارف الزكاة، وكذلك القضايا الكلية في الاعتقاد، مثل وجوب التحاكم إلى شرع الله، وحرمة الولاء للكافرين، واستخلاف الإنسان في الأرض[٥٤]. ثم يتطرق الزنيدي إلى أن الفكر يحتاج إلى أصول مقومة سابقة له حتى يكون صحيحا، ومن هذه المقومات: الأصول العقدية، والضوابط الشرعية، والتصنيف الإسلامي لمناهج العلم والبحث[٥٥].

٢ـ تطرق بعض علماء الشيعة لتعريف الفكر في كتاب لهم عن الفكر الإسلامي جمعه الشيخ محمد جواد الفقيه، فذكروا أولا تعريفات القدماء من علماء الشيعة وعلماء اللغة التي تدل على أن الفكر هو إعمال العقل، ثم استخلصوا منها خلاصة قالوا فيها: "وهكذا يضع هذا الفريق من الأعلام بين أيدينا الإيضاح والتعريف لكلمة (الفكر والتفكر). وهكذا تتضح حقيقة التفكر، وتشخيص معناها، وبأنها: **حركة عقلية وقوة مدركة يكتشف الإنسان عن طريقها القضايا المجهولة لديه والتي يبحث عنها ويستهدف تحصيلها فتنمو معارفه وعلومه وأفكاره في الحياة**"[٥٦]. وهذا التعريف

---

٥٠ د. أبو زيد، عبد الرحمن، **حقيقة الفكر الإسلامي** (الرياض: دار المسلم، ط١، ١٤١٥هـ) ص١٠.

٥١ المصدر السابق نفسه.

٥٢ المصدر السابق، ص١٤.

٥٣ المصدر السابق، ص٢٠.

٥٤ المصدر السابق نفسه.

٥٥ المصدر السابق، ص٤٥ وما بعدها.

٥٦ مجموعة من العلماء المفكرين، **الفكر الإسلامي**، إعداد الشيخ محمد جواد الفقيه (بيروت: دار الأضواء، ط١، ١٩٩٣) ص١١ـ١٢. علما أن الفقيه الذي أعد هذا الكتاب لم يذكر من هم المفكرين الذين قاموا بتأليف الكتاب، متبعا بذلك الطريقة الشيعية في الرواية.

يدل على العملية التي يقوم بها العقل ليكتشف الحقائق، ولا يدل هذا التعريف على الناتج. ولكنهم يستدركون ذلك لاحقا بقولهم: "وإذا كان هذا هو التفكير بصورة عامة، وإنه نتاج التفكير ومحصلته العلمية يمكن أن نسميها (الفكر)..."[٥٧]، وسنسلم معهم بأنّ محصلة التفكير يمكن أن تسمى فكراً رغم أن التعريفات التي أوردوها عن علماء الشيعة، وعن علماء اللغة لا تدل على هذا.

٣ـ عرف الدكتور محسن عبد الحميد الفكر الإسلامي بأنه "كل ما أنتج فكر المسلمين منذ مبعث رسول الله ﷺ إلى اليوم في المعارف الكونية العامة المتصلة بالله سبحانه وتعالى والعالم والإنسان، والذي يعبر عن اجتهادات العقل الإنساني لتفسير تلك المعارف العامة في إطار المبادئ الإسلامية عقيدة وشريعة، وسلوكا"[٥٨]. وقد ذكر الدكتور محسن مصدرين للفكر الإسلامي، فجعل القرآن والسنة المصدر الأول، وجعل الحضارات الأجنبية المصدر الثاني للفكر الإسلامي[٥٩]. ثم تكلم عن أصالة الفكر الإسلامي وتطوره، فقال بأن حركة الفكر الإسلامي قد بدأت منذ عهد الرسول ﷺ، مرورا بالعصور الإسلامية المختلفة، وقد جعل كل الحركات التي ظهرت في التاريخ الإسلامي تندرج تحت مفهوم الفكر الإسلامي[٦٠]، سواء كانت مصيبة أو مخطئة في اجتهادها، وأطلق مسميات كثيرة نسبها إلى الفكر مثل الفكر الاجتهادي، وغيرها من المصطلحات التي ستعيننا على فهم مصطلح الفكر ومناقشته عند الدكتور محسن عبد الحميد.

٤ـ الأزمة الفكرية المعاصرة، تشخيص ومقترحات علاج، للدكتور طه جابر العلواني. ذكر الدكتور طه جابر العلواني أولا تعريفات اللغويين للفكر، ثم ذكر معنى الكلمة في القرآن، وقال إنها تدل على الحدث الذي هو الفكر وتدل على الذات الفاعلة التي هي المفكرة[٦١]، ثم قال بأن القدماء قد تطرقوا إلى معنى الفكر، وأن الخلاصة التي خرج بها من خلال الدراسة هي: "بأن الفكر اسم لعملية تردد القوى العاقلة المفكرة في الإنسان، سواء أكان قلبا أو روحا أو ذهنا بالنظر والتدبر، لطلب

---

٥٧ المصدر السابق نفسه.

٥٨ د. عبد الحميد، محسن، **تجديد الفكر الإسلامي** (هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٦) ص٤١.

٥٩ المصدر السابق، ص٤٧ـ٤٩.

٦٠ المصدر السابق، ص٥٠ وما بعدها.

٦١ **الأزمة الفكرية المعاصرة**، ص٢٥ـ٢٦.

المعاني المجهولة من الأمور المعلومة، أو الوصول إلى الأحكام أو النسب بين الأشياء"[٦٢]. ثم ذكر لتوضيح المعنى تعريف الغزالي للفكر والذي هو إحضار معرفتين في القلب ليستخرج منهما معرفة ثالثة[٦٣]. ثم يضرب مثلا لتأكيد المعنى الذي يريده، فقال بأن ﴿أَقِيمُوا الصَلاَةَ﴾ إذا أردت تحويلها إلى قضية فكرية فستكون إقامة الصلاة مقدمة فيها فعل أمر وكل فعل أمر فهو واجب، فهذا دليل لغوي، والمقدمة الثانية هي أن الأمر واجب التنفيذ فهذا دليل أصولي، فوجوب الصلاة هي المقدمة الثالثة التي نتوصل إليها نتيجة الربط بين المقدمتين. وقال إن هذا العمل هو فكر. فالفكر عند الشيخ طه وفقا لهذا التعريف هو إعمال العقل أو النظر، وهو التعريف نفسه الذي نقلناه عن القدماء. وسنرى عند مناقشة كتب الدكتور طه مدى التزامه بهذا التعريف.

٥ـ فصول في التفكير الموضوعي، للدكتور عبد الكريم بكار. اعترف الدكتور بكار بأن كلمة التفكير من الكلمات الغامضة التي نستخدمها ولكننا نعجز عن شرحها، ثم ذكر تعريفات لمجموعة من علماء الغرب والمناطقة وعلماء النفس، وعلماء التربية تدور حول النشاطات العقلية والنفسية التي يقوم بها الإنسان وهو يواجه مشكلة ويريد حلها، ثم قال: "وهذه التعريفات كلها تدور حول قضية واحدة هي: تردد العقل في جملة من المعطيات توسلا إلى ما يرتبط بها من المجهول بطريقة منهجية"[٦٤]، وقال كذلك: "وإنما نعني بالتفكير ذلك الترديد للعقل في مشكلة ما ترديدا مركزا"[٦٥]، ولم يذكر الدكتور بكار تعريفا للفكر، وإنما عرف التفكير، ولكن من خلال قراءة الكتاب نرى أنه يتحدث عن الأفكار والفكر والتفكير بصفتهما شيئا واحدا، مما يدل على تعميمه التعريف على هذه المسميات، فهو مثلا يقول إن الأمة في تخلف وفقر، ولا يمكننا النهوض بها إلا عن طريق "الفكر المتحفز" الذي لا يعلم طعم الراحة حتى ينبلج الفجر المنتظر[٦٦]. وكذلك عندما يتكلم مثلا عن علاقة التفكير باكتشاف السنن، فإنه يقول: "فإذا كان هناك من أمر يحتاج إلى جهد فكري مكثف

---

٦٢ المصدر السابق، ص٢٧.

٦٣ المصدر السابق، ص٢٨.

٦٤ د. بكار، عبد الكريم، **فصول في التفكير الموضوعي** (دمشق: دار القلم، ط١، ١٩٩٣) ص١٣ـ١٤.

٦٥ المصدر السابق، ص٢٨.

٦٦ المصدر السابق، ص٢٠.

فإنه سيكون اكتشاف السنن"[٦٧]، وهكذا يمكن أن نقرر بأن مفهوم الفكر والتفكير هو بمعنى واحد عند الدكتور بكار ويشملهما تعريفه السابق.

٦ـ العقيدة والفكر الإسلامي: د. محمد هاشم سلطان. لم يعرف هذا الكاتب الفكر تعريفا واضحا، ولكنه ذكر تعريفا لرشيد رضا من كتابه الوحي المحمدي يبين فيه أن الفكر بمعنى النظر وهو أعظم وظائف العقل[٦٨]. وهذا التعريف يدل على أن الكاتب يرى بأن الفكر هو إعمال العقل، وهو التعريف الذي ذكره القدماء.

وسنكتفي بهذا القدر من تعريفات المحدثين للفكر، وذلك لما فيها من الكفاية للدلالة على القصد الذي نريد أن نصل إليه، وهو مفهوم كلمة الفكر عند المحدثين، وطريقة استخدامهم للكلمة في كتبهم. ويمكن لمن أراد الاستزادة مراجعة الكتب التي تتحدث عن الفكر أو العقل، أو الأزمات المعاصرة التي تمر بها الأمة، مثل: مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، للدكتور عبد المجيد النجار، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت. وكتاب: أزمة العقل المسلم، للدكتور عبد الحميد أحمد أبو سليمان، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة. وموسوعة أخلاق القرآن، للدكتور أحمد الشرباصي، نشر دار الرائد العربي، بيروت. وكتاب قضايا معاصرة للدكتور أحمد خليل، مكتبة الفلاح، دبي، ١٩٨٢م[٦٩]، وغيرها من الكتب.

المبحث الخامس: المناقشات

إذا نظرنا إلى تعريف المحدثين للفكر نرى أنه: العملية العقلية التي يقوم بها الإنسان من أجل التوصل إلى حقائق علمية معينة، وهو الناتج عن عملية التفكير، أو ما سماه بعضهم الحقائق العلمية التي يتوصل إليها الإنسان بعد التفكير، فالتعريف يحمل في مضمونه معنيين. وإذا سلمنا بالمعنى الأول من التعريف (العملية العقلية) لاتفاقه مع المفهوم السائد في القرآن، وفي السنة، وفي كتب القدماء، فعلينا أن نسأل عن المعنى الآخر الجديد الذي ضمَّه الزنيدي وغيره من المحدثين إلى كلمة الفكر، ألا وهو الناتج عن عملية التفكير،

---

٦٧ المصدر السابق، ص٢٣.

٦٨ د. سلطان، محمد هاشم، **العقيدة والفكر الإسلامي** (الرباط: دار الأمان، ط١، ١٩٨٧) ص٢٣.

٦٩ وهذا الكتاب الأخير لم يتطرق إلى تعريف الفكر، إلا أنه استخدم المصطلح كثيرا، وأضافه إلى كلمات كثيرة فشكل بها مصطلحات كثيرة، مثل: الأفكار القاتلة، والأفكار الميتة، وقال إن الأفكار القاتلة هي مجموعة القيم القادمة من الغرب استطاعت أن تستخدم كل وسائل الحرب المنظمة والأساليب الخادعة الماكرة.

فهذا المعنى الجديد فيه غموض شديد، وفيه تداخل مع مصطلحات أخرى تجعل من فهمه أمرا مستحيلا، وذلك لأن الناتج عن عملية التفكير هو حصيلة البشرية من المعرفة، وهو كل شيء نعرفه اليوم، ويدخل تحت هذا المفهوم كل المسميات الأخرى التي نستخدمها، فكل ما هو معلوم للإنسان جاء بعد عملية تفكير وتأثر بها حتى العقائد التي يؤمن بها الإنسان وطريقة تلقيه وفهمه لها إنما هي خاضعة لعملية التفكير.

إن الغموض الذي سببه المعنى الجديد الذي طرأ على الكلمة قد أدخل هؤلاء الكتاب في إشكالات كبيرة، أدت ـ في رأيي ـ إلى عدم إمكانية فهم مقاصدهم التي يريدون إيصالها إلى الناس، كما أنها سببت كثيرا من الخلافات والانشقاقات بين الصفوة المتعلمة من أمتنا. وسأضرب أمثلة على الإشكالات التي أدى إليها المعنى الجديد من خلال مناقشة المصطلح ومعانيه في بعض الكتب التي تحدثت عن الفكر، ومشاكله، وأزماته:

١ـ كتاب حقيقة الفكر الإسلامي للزنيدي:

فرق الزنيدي بين القرآن والسنة وبين الفكر الإسلامي، ووصف القرآن والسنة بالتعالي على محدودية الزمان والمكان، ووصف الفكر بأنه يقوم عليهما ويستنبط منهما ويدور في فلكهما، وبأنه متأثر بالواقع لأن الجهاز القائم بالتفكير هو العقل، وهو متأثر بالزمان والمكان[٧٠]. ثم يرى الزنيدي بأن الفكر أعمّ من الاجتهاد بحيث أنه يشمله وغيره[٧١]، ثم يبين أن ما هو قائم الآن في الساحة إنما هو التفريق بين الفكر والاجتهاد من حيث المسائل التي يعالجها كل جانب، فالفقيه يعالج القضايا الجزئية، والمفكر يعالج القضايا العامة[٧٢]. ثم يتطرق في الصفحة نفسها إلى أن القطعيات لا مجال للاجتهاد ولا الفكر فيها، وهنا يأتي الإشكال الذي يسببه القول بأن الفكر هو الناتج. لأن الوصول إلى أن هذه الأمور قطعية إنما هو نتيجة جاءت بعد إعمال العقل في الكتاب والسنة، فإخراج هذه القطعيات من مفهوم الفكر أصبح أمرا مخالفا للتعريف الذي ذكره الزنيدي، ويمكن القول بأن هذه الأمور لا يشملها الفكر إذا تحدثنا عنها بصفتها نتائج وقلنا بأن الفكر هو إعمال العقل فقط، أمّا في حالة الأخذ بتعريف الزنيدي فإن الأمر

---

٧٠ **حقيقة الفكر الإسلامي**، ص١٧.

٧١ المصدر السابق، ص١٩.

٧٢ المصدر السابق، ص٢٠.

فيه إشكال ولبس. ومثل هذا كثير في كتاب الزنيدي وغيره من الكتب، وسنكتفي بمناقشة إشكال واحد، أو اثنين من كل كتاب من أجل التوضيح فقط.

ومن الإشكالات التي وقع الزنيدي فيها خلطه بين العقل والفكر، ففي الصفحات ٣٥-٣٨ تحدث الزنيدي عن الفكر وهو يقصد العقل[٧٣]، فقال إن الإنسان يتلقى التشريع بالفكر، وأن الفكر هو فضيلة الإنسان على الحيوان وسائر المخلوقات في عالم المادة، وأن التفاضل بين الناس يكون بكمال العقول، والفكر هو الوسيلة التي استطاع بها الإنسان أن يرتقي في مدارج المدنية. ففي هذه العبارات قلب كبير للحقائق نتج عن الخلط بين الأسباب والنتائج وبين الوسيلة وما توصل إليه، فمن المعلوم أن الإنسان لا يتلقى التشريع بالنتائج العلمية التي يتوصل إليها، لأن النتائج إنما هي جوامد في ذاتها، تحتاج إلى من يكتشفها ويصل إليها، والتلقي وظيفة العقل لا وظيفة الفكر بصفته نتائج، أما الفكر بصفته عملية التفكير فهو الوسيلة التي يتبعها العقل للوصول إلى فهم الشرع، فالتلقي ابتداء لا يكون به، ولا علاقة له بالتلقي، وإنما له علاقة بالفهم، فليس كل متلقٍ فاهم، وكما قال الرسول ﷺ (فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع)[٧٤]، فالرسول ﷺ فرق بين الناس الذين بلغهم، وبين الناس الذين يفهمون الوحي ويتفكرون فيه.

٢- كتاب الفكر الإسلامي، إعداد محمد جواد الفقيه

يقول الكاتب: "فإذا كانت العملية الفكرية تنطلق من مقدمات فكرية إسلامية"[٧٥]، فهذه العبارة توحي بأنك حين تقوم بإعمال العقل عليك أن تنطلق من منطلقات فكرية إسلامية، وهذه المنطلقات وفقا لتعريفهم تأتي بعد عملية التفكير، فدخل الكاتب بذلك في عملية الدور، والتي لم يعثر على حلٍ منذ أحجية الدجاجة والبيضة، أيهما وجد أولاً: التفكير أم النتيجة الفكرية؟ فكلاهما يتوقف وجوده على الآخر. خاصة وأن مؤلفي الكتاب قد وضعوا لنا عنوانا هو المصطلح وأثره في الفكر

---

٧٣ العقل له تعريفات عدة،وقد اختلف العلماء في مفهومه، فمنهم من قال بأن العقل هو مجموعة العلوم الضرورية، ومنهم من قال هو مكان الفهم، ومنهم من قال الملكة التي يستطيع بواسطتها الإنسان الفهم، ومجمل القول بأني لم أطلع على تعريف من تعريفات العقل ينص على أن العقل هو النظر والتأمل.

٧٤ صحيح البخاري/ كتاب الحج/ حديث رقم ١٦٢٥.

٧٥ **الفكر الإسلامي**، ص١٣.

الإسلامي"، وعرفوا المصطلح بأنه: اللفظ الذي يضعه أهل عرف أو اختصاص معين ليدل على معنى معين يتبادر إلى الذهن عند إطلاق ذلك اللفظ.[٧٦]

وهناك إشكالات أخرى في الكتاب، مثل إشكال مصطلح الفساد الفكري والأخلاقي[٧٧]، فهل المقصود بأن الفساد وقع في طريقة التفكير أم في الناتج عن عملية التفكير؟ وكذلك قولهم: "وللمنهج أثره ودوره الكبير في أصالة الفكر وسلامة الأفكار والمعلومات والنظريات والمفاهيم المستنتجة"[٧٨]، فما المقصود بالمنهج الذي يؤثر على الفكر؟ أليس هو عملية التفكير استنادا إلى تعريفهم لمنهج البحث في الصفحة نفسها؟ ثم لماذا تقسيم ناتج التفكير إلى أفكار ومعلومات ومفاهيم؟ ثم يصفها جميعا بأنها مستنتجة، فالتعريف أصابه الغموض هنا، فليس كل ما ينتج عن عملية التفكير يسمى فكرا بناء على قولهم هذا، ولهذا فالمصطلح لم يعطِ المعنى الموضوع له، ولن يستطيع ذهننا أن يبادر إلى معنى محدد دون غيره[٧٩].

٣ـ كتاب تجديد الفكر الإسلامي، للدكتور محسن عبد الحميد

يرى الدكتور محسن عبد الحميد أنّ الفكر الإسلامي هو كل ما أنتجه فكر المسلمين منذ مبعث رسول الله ﷺ إلى اليوم في المعارف الكونية العامة المتصلة بالله سبحانه وتعالى والعالم والإنسان، فالفكر هو مجموعة المعارف التي يكتشفها الإنسان بوساطة عقله، ثم يعطي هذا الفكر تسمية ما بسبب انتمائه إلى دين أو عقيدة ما حسب تفسير الدكتور محسن. والإشكالات التي أريد تسجيلها هنا ترجع إلى التعريف أولا، وإلى ما يسببه التعريف ثانيا، فالدكتور عبد الحميد يقول بأن تعريف الفكر هو الفكر، فما هو الفكر ابتداء؟ فقولنا بأن الفكر الإسلامي هو كل ما أنتجه فكر المسلمين، يعني أن الماء هو الماء. فالمعلوم أن التعريف هو تحديد الشيء بذكر خواصه المميزة[٨٠]، والدكتور محسن

---

٧٦ المصدر السابق، ص١١١.

٧٧ المصدر السابق، ص١٤٤.

٧٨ المصدر السابق، ص٨٢.

٧٩ ذكر الكتاب أيضا مصطلحات أخرى ويقصد بها فروع الفكر الإسلامي مثل قوله: "ونحن عندما نبحث في الفكر الإسلامي كالعقيدة والفقه وأصوله والتفسير والسياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم الأخلاق والتاريخ والرواية" ثم يقول: "وبعد هذه التقديم نعرف أن هناك أسسا علمية عامة تشترك فيها البحوث والدراسات والنظريات العلمية كافة، المادية... أو الإنسانية كالاقتصاد والأخلاق والفلسفة والعقيدة والاجتماع والفقه" فهذه العلوم في نظر أصحاب الكتاب أجزاء للفكر الذي يشملها كلها. انظر صفحة ٨٤ـ٨٥.

٨٠ انظر: **المعجم الوسيط**، مادة (التعريف)، ص٥٩٥.

لم يذكر لنا شيئا من ذلك، بل عرف الشيء بنفسه. هذا من ناحية التعريف أما من ناحية ما يسببه التعريف فهو ــ على حسب فهمي للتعريف المذكور ــ جعل الفكر الإسلامي ما أنتجه العقل المسلم من المعارف الكونية المتصلة بالله سبحانه وتعالى والعالم والإنسان. وهذا المفهوم للفكر الإسلامي سبب لي إشكالا في الفهم، لأن الدكتور جعل العقيدة التي يفرق بينها وبين الفكر هي كليات الإسلام التي ثبتت بالوحي القاطع في شؤون الكون وخالقه والنبوات والقدر واليوم الآخر والمجتمع والإنسان[٨١]، فما الفرق إذا بين الفكر والعقيدة، وما الفرق بين المعلومة المتعلقة بالله سبحانه وتعالى المستندة إلى الوحي، وبين المعلومة المتعلقة بالله سبحانه وتعالى الثابتة بالوحي. هذا فضلا عن تعريفات أخرى وردت ضمنا في الكتاب عن الفكر والعقيدة وكلها تشير إلى وجود تداخل في المصطلحات وفهمها عند الدكتور محسن عبد الحميد، فهو يقول مثلا بأن: "الفكر الإسلامي هو ما أفرزه فكر المسلمين في ظل الإسلام من أفكار اجتهادية بشرية من الفلسفة والكلام والفقه وأصوله والتصوف والعلوم الإنسانية الأخرى منذ عهد الصحابة إلى اليوم في إطار ضوابط الفهم الإسلامي، وأما التصور فهو أيضا إفراز الفكر الإنساني في ضوء ضوابط الفهم الإسلامي ويمكن أن يستعمل بدل الفكر الإسلامي"[٨٢]، فمن هذا الكلام يمكننا أن نفهم بأن مصطلح التصور الإسلامي عندما يطلق فإنه يعني الفكر الإسلامي، وبذلك أصبحت لدينا كلمة جديدة للفكر وهي التصور، وهكذا سندخل في إشكال عدم دقة ووضوح المصطلحات. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأصول التي يتكلم عنها الدكتور والتي يفرق بينها وبين الفكر يقول بأنها أساسٌ من إنتاج الفكر. وذلك عندما يتحدث عن مصطلح العقيدة الإسلامية الذي لم يكن موجودا في زمن الرسول ﷺ وقال بأنه "وجد نتيجة الصراع الفكري بين أصول الإسلام وبين مبادئ الحضارات والأديان التي واجهته، فاضطر علماء الإسلام أن يوجدوا هذا المصطلح، لجمع أصول الدين من مباحث الإلهيات والنبوات والروحانيات والقدر والمعاد تحت سقف واحد، كي لا تختلط الأفكار"[٨٣]، فهو أولاً قد سمى هذه الأصول التي جمعت

---

٨١ **تجديد الفكر الإسلامي**، ص٤٠.

٨٢ المصدر السابق نفسه.

٨٣ المصدر السابق، ص٣٥-٣٦.

أفكارا، واعترف بأن تحديد تلك الأصول وجمعها إنما كان بجهد بشري، فلا عقيدة ولا أصول ثابتة إلا وهي خاضعة لجهد العقل البشري، فهي أفكارٌ كما سماها، وبهذا ندخل في تناقض مع تعريفه وتمييزه بين الفكر والعقيدة، وقد أورد الكاتب كلاما يدل دلالة صريحة وواضحة على أن الأصول الثابتة أو العقائد الإسلامية هي مجال اجتهاد العقل البشري وذلك بقوله: "ففي مجال العقائد الإسلامية التي عرضها القرآن والسنة، قام الفكر الإسلامي بمحاولة فك البراهين القرآنية اليقينية، وبنائها على مقدمات عقلية، وقام كذلك باستعمال قوانين المنطق في تفنيد العقائد والمبادئ التي كانت تخالف العقائد الإسلامية"[٨٤].

٤ـ كتاب الأزمة الفكرية المعاصرة، للدكتور طه جابر العلواني

ذكرنا أن الدكتور طه جابر قد عرف الفكر بأنه تردد القوى العاقلة المفكرة في الإنسان بالنظر والتدبر لطلب المعاني المجهولة، كما ذكرنا أنه عدَّ ذلك خلاصة ما قاله القدماء. ويمكننا القول بأن الدكتور طه يستخدم هذا التعريف في بعض الأماكن، فالأزمة تكون في طريقة التفكير لا في النتيجة، لأن النتائج تتغير تبعا لتغير طريقة التفكير، وهذا واضح وبدهي. لكن الدكتور طه لم يلتزم بهذا التعريف إطلاقا في كتابه، فهو عندما يطلق مصطلح الفكر في ثنايا الكتاب فإنه يقصد به معان كثيرة، وعلى القارئ أن يستنبط هذه المعاني من خلال متابعة الكتاب، والكتب الأخرى للدكتور طه حتى يمكنه فهم المصطلح في مظانه، ومثال ذلك قوله: "هذا الفكر الميت الذي لا يستند إلى شيء من كتاب الله ولا إلى شيء من سنة رسول الله ﷺ، هذا الفكر الذي نجم عن مثل هذه العمليات لا بد من معالجته"[٨٥]، والعلواني يتكلم هنا عن مجموعة من التراكمات التي حدثت في الأمة بسبب الأزمة الفكرية، فسمى هذه التراكمات بالفكر، وهذه التراكمات هي مجموعة من القيم أو القوانين الخاطئة التي سادت في المجتمع بسبب الخلل في أزمة التفكير، فهنا عمم الشيخ طه معنى الفكر بحيث يشمل النتيجة أو الثمرة التي تأتي بعد عملية التفكير، وفي هذا التعميم تجاوز للمعنى الوارد في التعريف. وفعل كذلك في مواضع أخرى من الكتاب، فقد قال وهو يتكلم عن العلوم الإنسانية والاجتماعية" فلكل مذهب أو حضارة أو ثقافة أو دين

---

٨٤ المصدر السابق نفسه، ص٤٨.

٨٥ **الأزمة الفكرية المعاصرة**، ص٤٠.

فكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان، فكرته الكلية عن الإنسان وغاية وجوده وطبيعة هذا الوجود..... هذه العلوم ـ كما قلنا ـ تختلف عن علوم المادة وتختلف عن قضايا المؤسسات، ليست فكرا مشتركا عالميا وإنما تتمايز فيها الأديان والمذاهب"[٨٦] فالشيخ طه جعل الفكر بمعنى المعرفة التي قال عنها أنها في رأي غير المسلمين "كل معلوم خضع للحس والتجربة"[٨٧]، وعرفها هو بأنها "كل معلوم دل عليه الوحي والحس والتجربة"[٨٨]، وهكذا أصبح للمصطلح ثلاثة معان في هذا الكتاب، وهي معان مختلفة عن بعضها البعض اختلافا كبيرا، وبالتالي فإن فهم المصطلح أصبح عسيراً لمن أراد أن يفهم المعنى فهما علميا منضبطا، وهذا كله نتج بسبب إعطاء المصطلح معنى آخر غير العملية العقلية التي يقوم بها الإنسان من أجل الوصول إلى مبتغاه[٨٩].

٥ـ كتاب فصول في التفكير الموضوعي، للدكتور عبد الكريم بكار.

لقد ذكر الدكتور عبد الكريم بكار تعريفا للفكر والتفكير، ويدل التعريف على عملية إعمال العقل والنظر، وقد تحرى الدكتور بكار الدقة في استخدام المصطلح في كتابه، فهو عندما يطلق كلمة فكر أو تفكير فإنك يمكن أن تفهم بسهولة أنه يقصد إعمال العقل، والنظر، مما يجعل فهم مقاصد الدكتور بكار من مصطلح الفكر أمرا ميسورا[٩٠]، لذلك فإن كتابه صورة جيدة لما ندعو إليه من ضبط المصطلحات، وإعطائها معنى ثابتا، يتبادر إلى الذهن عند إطلاقها.

٦ـ كتاب العقيدة والفكر الإسلامي، للدكتور محمد هاشم سلطان.

لقد خصص الدكتور محمد هاشم كتابه للكلام عن العقيدة والفكر الإسلامي، وكان حريا به ـ أولا ـ أن يضع تعريفا للفكر، لأنه يتكلم عن موضوع دقيق وخطير،

---

٨٦ المصدر السابق، ص٤٤.

٨٧ المصدر السابق، ص٣١.

٨٨ المصدر السابق، ص٣٣.

٨٩ أطلق الدكتور طه جابر العلواني مصطلح الفكر وأراد به العقيدة ـ حسب فهمي للسياق الذي ورد فيه المصطلح ـ في كتاب آخر له وهو **إصلاح الفكر الإسلامي، مدخل إلى نظم خطاب الفكر الإسلامي المعاصر**، ص١٢٣، حين تكلم عن العمليات التي يجب أن تتم من أجل تحويل الفكر إلى فعل، ثم يقول في الصفحة نفسها "بل نحن واعون تمام الوعي بأن إدراك أبعاد العقيدة وفهمها من طرف جيل القدوة، دفع إلى اجتهاد وفكر أنزل العقيدة على حياة الناس وقوّم سلوكهم"، فالتشابه واضح هنا بين مفهوم تحويل الفكر إلى فعل، وإنزال العقيدة على حياة الناس، وهو تحويل جملة من المبادئ إلى فعل في حياة الناس كما فعل الصحابة.

٩٠ استخدم الدكتور بكار في موضع أو موضعين الكلمة في غير معناها، وهذا لا يغير من أن الدكتور كان دقيقاً في استخدامه للكلمة.

ولذلك فوضوح المصطلحات أمر لا مفر منه، وقد نقل تعريفا للشيخ محمد رشيد رضا، وهذا في رأيي لا يكفي لمن يتناول موضوعا خطيرا مثل هذا[٩١]، وسنعتمد هنا أن الدكتور سلطان يتبنى هذا التعريف لأنه لم يورد غيره، والتعريف كما أشرنا سابقا ينص على أن الفكر بمعنى النظر وهو إعمال العقل، وذلك لأنه وصفه بأنه من أعظم وظائف العقل. وعندما نقرأ في صفحات الكتاب نرى أن الدكتور سلطان قد استخدم المصطلح بهذا المعنى فعلا في بعض الأماكن مثل قوله "زلات الفكر"[٩٢]، ولكنه لم يلتزم هذا المعنى في كثير من الأماكن الأخرى، فقد استخدمه في معنى آخر، ألا وهو النتيجة أو ثمرة التفكير، فهو يقول مثلا "بما حواه من أفكار ومبادئ"[٩٣]، وهو يعني هنا مجموعة القيم والمبادئ. كما أنه في موقع آخر قال "الفكر الإلهي والفكر المادي"[٩٤]، ولا أظن أن هذا المصطلح يحتمل التأويل بأنه يقصد طريقة تفكير الله وطريقة تفكير المادة. وهكذا نكتشف بأن المصطلح له أكثر من معنى عند الدكتور سلطان، وهذا يسبب خللا في الفهم عند القارئ، لأن عدم الثبات على معنى معين، وعدم وجود قاعدة تضبط المصطلح حين وروده تسبب إرباكا شديدا في الفهم، وهذا يقطع التواصل بين القارئ والكاتب، مما يدعو إلى سوء الفهم، وربما النفرة، الأمر الذي لا يتناسب مع دعوى إصلاح الخطاب الإسلامي التي يدعو إليها الكتاب المسلمون كافة، من أجل تعميم الصحوة، وإصلاح مناهج التفكير.

الخاتمة

إن المباحث التي تناولتها هذه الورقات حاولت أن تثبت أنّ الاهتمام بالخطاب الإسلامي أمر مهم وخطير، وذلك لأن الخطاب هو السبيل المتيسر عندنا الآن من أجل إيقاظ الأمة من غفلتها، وتنوير الطريق أمامها، وتوضيح المزالق والصعوبات التي قد تواجهها وهي تسير في طرق النهوض والتقدم. ومن أجل ذلك فإيجاد لغة مشتركة واضحة يفهمها المتخاطبون من البدهيات التي يجب ألاّ نغفل عنها.

---

٩١ لقد فعل الدكتور عبد الحميد أحمد أبو سليمان الشيء نفسه في كتابه **أزمة العقل المسلم**، حيث جعل الأزمة التي تمر بها الأمة أزمة فكرية، ولكنه لم يعرف لنا الفكر، أو يبين لنا حدوده.

٩٢ **العقيد والفكر الإسلامي**، ص١١٠.

٩٣ المصدرالسابق، ص١١٣.

٩٤ المصدر السابق، ص١٣٩.

إن الغاية من البحث ابتداء وانتهاء هي الدعوة إلى تحديد معاني الكلمات المستخدمة في الأبحاث العلمية، أو الأبحاث التي تتكلم عن التقارب والتواصل بين أبناء الأمة، وذلك بإيجاد لغة مشتركة يفهمها الجميع فهما واضحا، فهماً لا يترك مجالا لسوء الفهم أو الاختلاف، وكم من مرة تعادى الباحثون في قضية من القضايا بسبب عدم فهم لغة التخاطب، وتستمر العداوة حتى تنتهي بالتعصب الذي لا رجعة فيه عن الخطأ، وكم من مرة قرأت كلاما جميلا في التوفيق بين المتخاصمين يكشف أن الخلاف في اللفظ دون الجوهر.

والدعوة التي يرى الباحث ضرورة الاهتمام بها وأخذها مأخذ الجد هي العمل الدؤوب على وضع قاموس للمصطلحات المستخدمة في الكتب الإسلامية التي تعالج العلوم الإنسانية، ويحوي القاموس هذا مجمل التعريفات الواردة في الكتب محاولاً استنباط المعنى المشترك بينها، ثم يتبني مشروع تعميم هذا المعنى، ونشره في المحافل العلمية والثقافية رغم أن تبني مثل هذا المشروع ليس بالأمر الهين، لكن المحاولة لن تضر الأمة شيئا، ومن يدري، فربما يكون هذا القاموس وسيلة لتوحيد طريقة التفكير عند المسلمين، والتي هي أولى الطرق لتحقيق الوحدة الشاملة.